لعله من نافلة القول التذكير بأن مساحة البوح الشعرية الحقيقية ضيقة، وتكفي سبباً مقنعاً يحفز همم الشعراء على اقتراف جزر وبحار فنية ولغوية ذات ميزات خصبة فيها من الذات والموضوع ما فيها بنسب معتدلة، وهو الأمر الذي يجعل مهمة بعض النقدة والقراء من الصعوبة بمكان، إذ لا يستطيعون الغوص في أعماق هذه البحور والفيافي والبساتين اللهم إلا إذا توافر لها من كان متسلحاً بجماليات القصد والتقصيد، أو قنية المعنى والتأويل كما يشير الشاعر الكرواني نفسه في مجال النقد..

قراءة في ديوان

شذرات البرق

للشاعر سعيد ساجد الكرواني

فاطمة الزهراء الجيش*

* ناقدة وشاعرة مغربية.

وذلك فضلاً عن رحابة وشساعة الاختلاف وتعدد القراءات، وتكاثر أسباب وطرائق التلقي والإمداد باختلاف المشارب الثقافية والبيئية واللغوية أيضاً، لأن القصيدة ذات الرؤية الأحادية التكوين تعد بطريقة ما أقرب إلى الفقر الفني والموضوعي، أما التي تفتح آفاقاً عديدة أمام المتلقين سيان في ذلك القراء والمستمعون شريطة الإمعان والتأمل الخاطف والسريع كالبرق أو هو أقرب مما يوازي عنوان الديوان/ شذرات البرق، فهي تحاول ولاشك تكسير التحجر على إبداع واحد لا يتعدد فلا يتنوع، ونحن ننشد الغنى والتنوع الجميل لتحسين العالم والحياة والأشياء، وما إلى ذلك من الوظائف الشعرية الملتزمة والجادة، تلك هي القصيدة الحقيقية التي نحسب - بصدق - أن هذا الديوان يحاول أن يقدمها.

ولقد حاول الشاعر سعيد الكرواني بعد حوم فاق العقد من الزمان أن يقع في حمى اختزال الكلمات المؤدية إلى تعدد القراءات في غنى متناسب شكلاً ومضموناً - كما سأبينه ها هنا -.

ومع هذا وذاك، فإنني لست أذكر أن عندنا أزمات في التلقي، ليس من لدن القراء فحسب، بل أيضاً من بعض النقاد الذين يكتبون أكثر مما يقرؤون ويبدئون ويعيدون إذا سوغت لنا الاستفادة من عباس محمود العقاد رحمه الله.. من أجل ذلك إذا أردنا أن نكسر أغلال العي، فإنما يكون ذلك فقط بكثرة القراءة والإدمان عليها فضلاً عن الرجوع إلى المناهل التي ينهل منها الشاعر، وربما لجأنا إليه أحياناً لسؤاله عن معنى أو صورة أو ما إلى ذلك - ولاحرج - إذا أردنا حقيقة أن نخدم النصوص التي تصب في خدمة الأدب الإسلامي.. حتى نميز كما قلنا بين المعنى والتأويل أو بين القصد والتقصيد إذا ما استفدنا - مرة أخرى - من علماء الأصول وأهل المقاصد منهم على وجه التحديد.

ثم إن شاعراً كالكرواني لا تخطئه العين لأن نصوصه تدل عليه ويدل عليها إذ يضفي عليها قسماته اللغوية وصوره السخية وتأويلاته ومعانيه المتجددة.

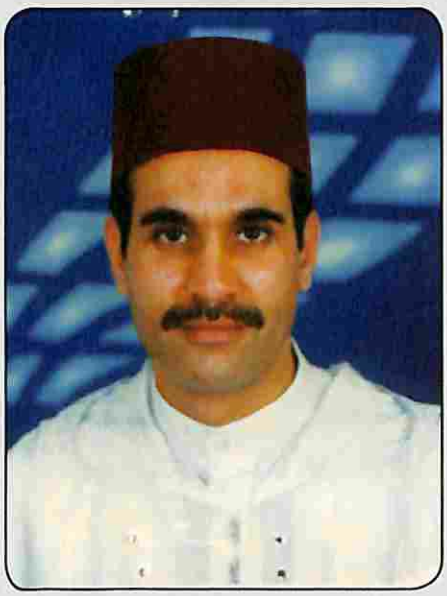

سعيد ساجد الكرواني

ولا شك في أن كل كلام عار عن الدليل يعد عارياً عن الصحة ، لذا آليت على نفسي أن أخوض هذا الغمار الصعب والمركب القوي بقوة السفينة الممتطاة في الصحراء والبحر سواء.

إن أول شيء يلفت الانتباه في قصائدالشاعر الكرواني كما أشرت في دراستي لديوانه«دوحة البلسسم الأخضر» هو قصر القصائد. أما ها هنا في الشذرات، فإن القصر يعمها جميعاً، لأنها فعلا شذرات بما في الكلمة من تجزيء، وهي من البرق كذلك بما ينطوي عليه من سرعة فائقة وهو الأمر الذي يوازي العنوان، ولا أقول عن هذه القصائد القصيرة مقطوعات لمسألة واحدة تعد في نظري كافية أن هذا الأمر مقصود كما حدثني الشاعر نفسه أكثر من مرة رغم اختلاف القدامى والمحدثين في هذا الشأن، إلا أن حرية الاختيار والتجديد تدفعنا أن نطمئن إلى أن الجزء من الماء ماء، كما أن الجزء من البياض بياض، ومن السماء سماء، إذا -جزاء وفاقاً فإن من تحصيل الحاصل أن نقول إن الجزء من الشعر شعر، ناهيك عن حمولتها المعنوية القوية وغزارتها، فهي على هذه الاعتبارات ليست مقطوعات غير مكتملة ولكنها قصائد كاملة وتامة، لأنها هكذا خرجت عن غير استئذان، وإلا لما سطرها الشاعر كما نعرف عنه جيداً وقد عايشنا تجربته منذ البدء.

إن الدلالة النافذة لقصائد الشذرات البرقية تستمد إيجازها من القرآن الكريم ومن جوامع كلم رسول الله ﷺ في الشكل والمضمون معا.. ولقد قيل عن القرآن الكريم بحق : «إعجازه في إيجازه» ولا يخفى ما اشتهر على ألسنة الناس من أن خير الكلام ما قل ودل، وهو من صميم البلاغة.. كما أشير إلى أن الشاعر يعزف على القصائد المتوسطة الطول أيضاً كما أن له من المطولات الشيء الكثير خذ على سبيل المثال لا الحصر ديوانه (عطش العشق) الذي يحتضن ثلاث قصائد فقط تتدرج عمودياً من الطويلة إلى الأطول فالأكثر طولاً مما لا ينفي وحدة الموضوع واللغة والرسم، وهو الأمر الذي يباين أغلب

دواوينه التي فاقت العشرين ديواناً، إلا أنها - والحق يقال - تحقق نوعية فنية في كل ديوان على حدة.

وشاعرنا الكرواني يعد ثالث ثلاثة من أبزر من يكتب في هذا الفن الصعب الذي يدل عليه، والشاعر عبدالكريم الطبال، والشاعر الدكتور فريد الأنصاري.. نعم هناك آخرون ولكنهم إما لم يفردوا له ديواناً، وإما يكتبون فيما يسمى خطأ (قصيدة النثر) وهي لا تدخل في حسباننا أبداً.

أما خطتي في هذه الكلمة المتواضعة، فترتكز على الفن والموضوع معاً في تسلسل وتخلص متتابع، بمنهج تنتجه النصوص وليس من خارجها تعمل المبضع كما هو السائد، وذلك ما نظن أننا في حاجة ماسة إليه في نقدنا ودراستنا.

يتكون ديوان شذرات البرق من (٨٣) برقية أو شذرة جاءت على الشكل الموحي التالي :

قصة الهرم - طيف وحباب - عمق البحر وبحر العمق - شعر ونثر - العربية - فيء - قرى - قلب الشعر وشعر القلب - أثر - إعصار - بستان الإشارة - ذر - عبرة - هدى - عزة - نضرة - لأمة - دار المقامة - إيثار - مهرجان النشيد - سلوك حدود - لا تمزقها - لفح طيب الشهادة - مشكاة الروح - بلاغ - عقد القران - نول النورسة - سورة المدى - عسجد ولجين - سرمد الشعر - قصيدة الفرح - ظبي الماء - جسر إلى كنز - رجع - الطير الأخضر - حمرة - صحاصح - عصفورتي - النورس - نسيم لم تنل منه أنفاس العصاة - صهيل - بيت - إنشاء - الوشي - المرقوم - أصحاب العشق - هبة - بعيد الفجر - شهد - بوح الموج - رجاء البحار - مقاربة - الرسول - تسامح - نفاذ - فيض - صخرة السفح - المرمرة - البيضاء - غمامة البياض - بركة النور - اشتعال الماء - أصول - سورة الكتابة - جذوة - حوار - عشق - فراشتنا - جمال الروح - أم الظبي الشائك القرنين - اليعفور - عناق - أقصوصة الفجر - الغليل - حياكة القصيدة - مملكة الحرف - الواحة - مغادرة القمقم - جذور الكلم الأسنى - رحلة الورد - قصيدة العيد السعيد - مقام الشهود - مقام الرجاء.

ولعل أصغر قصيدة في الديوان الذي بين أيدينا أو لربما في غيره من دواوين الشاعر وغيره من الشعراء جميعاً في حدود علمي المتواضع هي (قصة الهرم) المتكونة من أربع كلمات يقول فيها:

أصابه الهرم

ليصعد الهرم

وفي هذه الكلمات الأربع تتكرر لفظة الهرم مما قد يحدونا أن نصرح بإمكان حسبانها كلمات ثلاث فقط بهذا الاعتبار، فضلاً عما فيها من الناحية البلاغية من جناس تام..

أما المعنى القريب المتبادر فهو أن المرء قد يهرم قبل أن يدرك بغيته، حتى إذا كانت همته عالية وشامخة كشموخ أهرامات مصر - مثلاً - فلربما أدرك ما يريد، لأن المجال مفتوح، إذ يقول الشاعر: إن صاحبه أدركه الهرم ليصعد الهرم، لكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً، وقد يحتمل التأويل أو التقصيد اللغوي أنه أصابه الهرم لأجل أن يصعد الهرم، فصعد آخر المطاف لكن بعد النصب والتعب والكدح، لأن من وضع نصب عينيه هدفاً معيناً وعمل الذي عليه من إخلاص وصواب، فلعل الله تبارك وتعالى ينيله إياه حسب علو همته المتعلقة بالجمال والجلال، أو على الأقل يكتب له الأجر في الميزان، وهذا - حقيقة - ليس شيئاً قليلاً ولازائلاً.. يستحق - فعلاً - أن تضرب من أجله المسافات الطوال صعوداً وهبوطاً، وتغزى من أجله الفلوات والقفار في الليل والنهار.. كما قد يمتد بنا التأويل إلى الآخرة حيث لا يمر الإنسان من الحواجز الصعبة والعقبات الكأداء حتى يمر مروراً طيباً في الدنيا قوامه الكدح والمجاهدة والنصب..

ومن ذات الجانب الشكلي نجد في المعجم كلمتي أصابه وليصعد، وبداهة

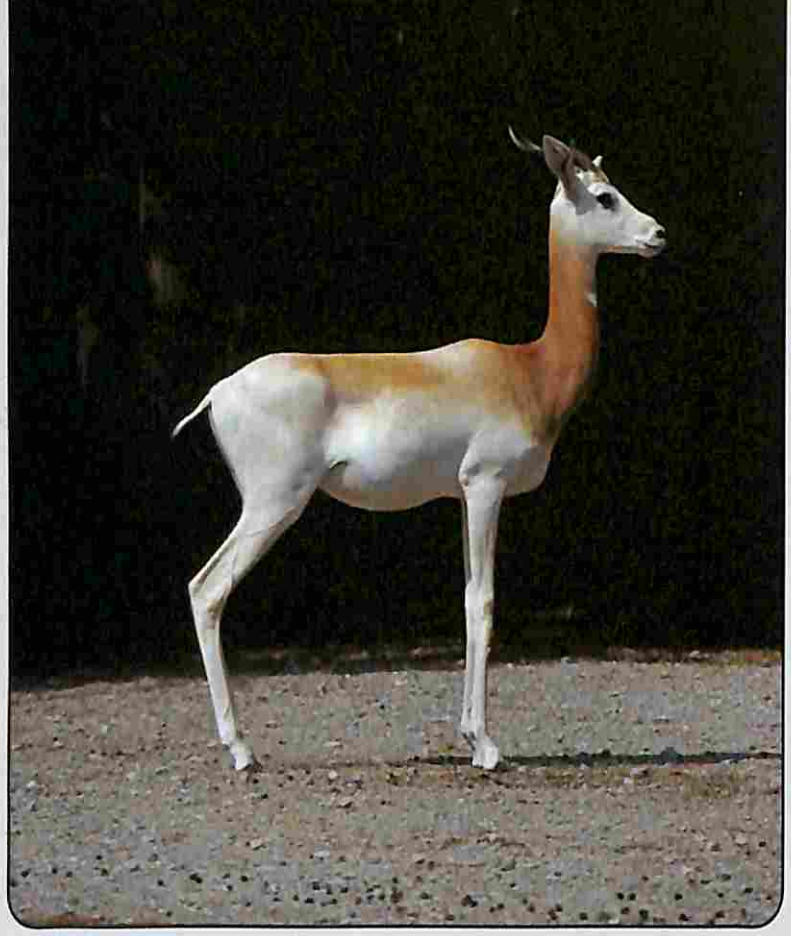

فإن الأمر يتعلق بشخص ما، فنسأل من؟ ليكون الجواب تحصيل حاصل كما هو الشأن في البيان العربي والبيان القرآني حيث يرد في القرآن الكريم قوله عز وجل: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ (القدر)، إذ لا يشك أحد في أن الحديث دائر عن القرآن الكريم دون ذكره تصريحًا، والتلميح أبلغ.. وهذا واحد من الأمثلة التي يستفيد منها الشاعر الكرواني من القرآن العظيم في الجانب الأسلوبي فضلاً عن المضمون.. في جملة من دواوينه، كما يستفيد من تقنية أخرى، وذلك حين يتحدث عن نفس الموضوعية، لكن بطرائق مختلفة ومتنوعة، ألم يستشفها من القصص القرآني؟ بلى، وأذكر على سبيل المثال قصيدة «أمران أمرهما حلو» من الديوان الذي يحمل نفس الاسم، قالها بطريقتين مختلفتين، واحدة موازية تسمى «بطاقة شهيد»، والثانية بعنوان «زهرتان» في إسهاب وتفصيل.. وهناك أيضاً على مستوى الشكل قصيدتان واحدة من ديوان البحر وأخرى من ديوان البئر وهكذا، لا أحصي الشواهد حتى يبقى المجال مفتوحاً أمام من يتتبع التفاصيل منقباً وباحثاً وغائصاً.

بقيت مسألة الصوت المتمثل في حرف الصاد المتكرر والمتصادي في اللفظتين، والصاد كما هو معلوم من حروف الصفير والاستعلاء، حتى إن الصاعد ليتنفس بقوة وجهد وهو يعلو فوق الهرم (كأنما يصعد في السماء).. ناهيك عن أن في الكلمة الأولى الباء وهي من حروف القلقلة، كما هو الشأن فيما يخص الكلمة الثانية التي تحتضن حرف الدال.. والقوة مسألة مفروغ من طلبها في هذا المضمار الشاق والمشوار الطويل..

وفي قصيدة (فيء) ذلك العنوان الموفق كغيره من عنوانات القصائد والدواوين، نص على ذلك أكثر من ناقد، ذلك بأن الذي ينصب ويكدح ويجهد يحتاج أن يروح عن نفسه ساعة وساعة كما جاء في بعض الآثار النبوية الشريفة، لكن الوجهة قد تختلف ﴿لكل وجهة هو موليها﴾ (البقرة) يرتاح فيها وإليها محتمياً من ظهيرة الحياة ووعثائها ولأوائها، ولكنها ليست ككل القصائد لأنها قصائد الروح والإيمان والجمال:

في ظلال من قصائد
تحتمي من حر هاتيك الشدائد

أما الصورة الشعرية الجميلة والجديدة فتتمثل في مخيال تشخيص القصائد بوصفها شجرات نتفيأ/ من العنوان - ظلالها هروباً من حرارة الشدائد والمشكلات التي يشير إليها الشاعر موظفاً الإشارة في إشاراته اللطيفة المختزلة.

ثم انظر ماذا ترى؟ ألا تستحضر قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ (إبراهيم)، وقوله عز من قائل: ﴿... يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ (النحل).

ثم انظر إلى صورة المتعب الذي أنهكه كدح الحياة ولأواؤها ونصبها ليحتمي بظل قصيدة/ شجرة عله يتلمس ما يذهب عنه الحر والشدة تحت الظلال الكريمة.

وفي قصيدته الدالة (طيف وحباب) يتواضع الشاعر مشبهاً القصيدة بالآل أي السراب، حتى إذا ظن أنه عثر عليه لم يجده شيئاً، فهو يبحث وينقب جاهداً قصد العثور عليها، ولقد صرح أكثر من مرة خلال قراءاته في الملتقيات الشعرية أنه مازال يبحث عنها دون جدوى، اللهم إلا ما كان من بصيص نور بعد الحين والحين، ولنستدع القصيدة الشارحة لها - إذا صح التعبير - من ديوانه «الأيقونة الفريدة لجيد الظبي

المستحيل» تحت عنوان معبر يشجعنا على المضي في المعنى الذي أومأنا إليه: (بحث مستمر) يقول فيها:

«بخعت نفسي سائلا
أبحث عن غزالة شريدة
بظلها تأسرني
فلم أسطع أن أستريح
ولم أقبض سوى الهواء
وقد ركبت متن الريح
إلى جزيرة الفرح
هناك في سر الجبال
يأفل في أحضانها قوس قزح
ولجت حلكة الغسق
سألت كل ما وسق
وقمرا إذا اتسق
فغطني ما غطني من الأرق
وعند جيئة الشفق
لم تستسلم أثارة من البريق
....
أصررت أن أتابع الطريق
لعلني أشفي الحريق
من الحباب والرحيق
فلم أعثر سوى
على الآل الذي
يروي الصب العشيق»

فالطيف - عودا على بدء - ليس من السهولة وضع اليد عليه، كما أن الحباب والقطرات المائية مع القناعة قد تنفع إذا ما بارك الله تعالى: ﴿... فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ...﴾ (البقرة)، أما السراب فمهما اقتربت منه فليس بمقدورك أن تقبض عليه، خاصة إذا شبهت القصيدة مرة أخرى بأنها غزالة ناسكة متمنعة..

ونبقى دائماً مع الحرف والقصيد الذي يسكن شاعرنا حتى النخاع، فلا يقدر على الكتمان أبداً، وهو يصرح هاهنا في أول قصيدة من الديوان الموسوم بمشاهد رصعها نول الربيع

تحت عنوان مهرجان الماء في سؤال:

أجمر البوح خير أم لظى الكتمان؟

ولك أن تختار بين الجمر واللظى، كما قيل: كالمستجير من الرمضاء بالنار.. ويؤكد هذه المعاني ما جاء في قصيدتيه التاليتين:

■■ شعر ونثر:

إن تسامى الشعر عمقاً ووضوحاً
وتعالى النثر جواً وسفوحاً
فلقلبي عبرات قد تأبين الجموحا

■■ العربية:

تذوبني فرائدها
وتأسرني أوابدها
تهيج كل ألحاني
فيهمي دمعي الحاني

وأنا أعلم أنه لم يزد عن وصف حالته بصدق موضوعي في قالب فني زاده الصدق الفني أيضاً جمالاً، فهو قد يبكي حين يقرأ عربية فصيحة مستقيمة لا عوج فيها ولا أمتا دون أن يكون الحديث بالضرورة عن الكتاب الحكيم والسنة الشريفة، أما إذا تعلق الأمر بأحدهما أو كليهما، فلك أن تتخيل الصورة التي يكون عليها شاعرنا المرهف.

ثم إننا نجد القصص القرآني حاضراً في جل أشعار الشاعر في استفادة حسنة تتنزل على الواقع بطريقة فنية جميلة كقوله في قصيدة (أثر):

أبصر بشرى قمصان/ فهي علامة
سجدة نور/ للنور تلألأ شامة

ولاشك في أن واقعنا يحتاج إلى من يمسح عينيه ليس بقميص بل بأقمصة متعددة تناسبه من مشكاة القميص الذي جاء به البشير من لدن يوسف عليه السلام ليرتد يعقوب عليه السلام بصيرا وقد أنهكه البعد.. فلم يكتف الشاعر بسرد القصة بل وظفها توظيفاً كما فعل بالنسبة لقصة سيدنا أيوب عليه السلام في ديوانه: «سفر الوردة والميزان» حين قال في القصيدة المسماة (سجل مرقوم):

حرريني وردة أو
نجمة أو
صحوة أو
غرة من ياسمين
عندها عين اليقين
في ظلال من غمام
يستحم السرب عنوان السلام

والصوى للسابحين
شجرات أنبتت من برء يقطين
جمع شمل المسلمين

ولاشك أن السلم المزعوم يحتاج إلى أن يتنظف ليكون على منهاج القرآن الكريم.. والنهج عينه سار عليه الشاعر في قصيدته: «الدوحة الشماء» من ديوانه: «دوحة البلسم الأخضر» وهكذا في كثير من قصائد عناق الهدى والهوى وغيره من الدواوين.. إنما هذه أمثلة فقط أرجو أن تكون داعية إلى الرجوع إلى المظان التي أشرت إليها.. وحين ننظر إلى القصيدة التي تحت عنوان: (لفح طيب الشهادة):

حمامة قد حلقت
من بعد ما تألقت
وزينت منقارها زهيرة قانية حمراء
مرشوشة بلفح طيب الشهداء

نستنتج أولاً الاستفادة من «نفح الطيب» للمقري، بل تقنية القلب البلاغي من النفح إلى اللفح ليرفد المعنى بظلال قوة الموقف وحسابه الذي يوطن نفسه الشهيد فيه من اللحظات الحاسمة الأخيرة، ولكن الشاعر بتحريضه على هذا الفعل الذي لا يقدم عليه إلا المستيقن لقاء الله تبارك تعالى، وقد أفرد لموضوع الشهادة والاستشهاد ديواناً كاملاً «أمران أمرهما حلو» يتحدث بطريقة شاعرية من البدء إلى المنتهى حول موضوع الشهادة والنصر بطبيعة الحال.. كما هو الحال بالنسبة إلى كثير من مجموعاته الشعرية التي اختارت أن تتحدث عن موضوع واحد لتعطيه الفرصة كاملة في البيان والوضوح الفني كمثل ديوان البحر، وديوان البئر، وديوان النخلة، والأيقونة الفريدة لجيد الظبي المستحيل، وغيرها، إلا أن الديوان الذي بين أيدينا اختار موضوعية شكلية إذا جاز أن نقول، وهي تتمثل في قصر القصائد وتركيزها وعطائها الثر والسخي.

وما دمنا وصلنا إلى قضية السخاء والكرم فقد استدعى شاعرنا كرم الكرام في هذه الكلمات المعبرة التي صح أن نستدعي معها الاستهلال الذي يستشف من مقولة النفري: «كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة» ولنا أن نقلبها فتعطينا معنى متجدداً نحتاجه للزيادة في المعنى والمبنى: «كلما ضاقت العبارة اتسعت الرؤية»..

ورحم الله من قال:

العبد يقرع بالعصا
والحر تكفيه الإشارة

أما القصيدة المعبرة عن مثل هذه المعاني فهي:

ناري على شرف تأجج لاصطلاء السارية
يا نار إلا تجلبي ضيفاً فلست بناريه

فها أنتذا تراه يتبرأ من هذه النار التي تكون على علم/ جبل (شرف) كما اختار في النص لتدل المسافرين لعلهم يصطلون، إن لم تستدعهم ليمارس كرمه..

وفي قصيدة (عِزّة):

من عبير الهجود
وسمير السجود
رفعة في الخلود

ففضلاً عن الصورة البديعة وكيف أن للهجود عبيره وللسجود سميره، وأن من كان هذا ديدنه رفعه الله في الخالدين ﴿والعمل الصالح يرفعه﴾، فالمقام كله مقام رفعة وثناء، فإننا نستحضر كرة أخرى آية وحديثاً إذ جاء في التنزيل العزيز: ﴿كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١٩﴾﴾ (العلق)، وقول الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام: «أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد»، كما رواه مسلم في صحيحه.

أما قصيدة (لا تمزقها):

لئن كان للشعر دم
فللدم دوما قصيد

وحتى نبقى دائماً مع موضوعية الكلمة الطيبة والقصيدة الشجرة، فقد كنت حاضرة الندوة التي يشارك فيها الشاعر فمزق زميله قصيدة قائلاً: «القصيدة التي مزقها الشاعر»، فظهر أن الكرواني لم يسره الأمر، وبعد حين كان هذا التعبير المستفيد من البلاغة الجديدة في انزياحها على مستوى بنية الكلمة مثلاً (الدم) بالشدة لتعبر عن الكثرة.. فضلاً عن التشخيص الذي يجعل الشعر إنساناً له دماء تجري في عروقه..

نفس الشيء بالنسبة إلى البيت اليتيم الآخر الذي ذكره الشاعر في الصدر من الديوان تحت عنوان قلب الشعر وشعر القلب:

قال لي: للشعر قلب
قلت: للقلب شعور

ونبقى أيضاً في مجال الحديث عن النقطة الواحدة إذ تحسن الاستفادة من كتاب الله تعالى في قصيدة (مشكاة الروح) حيث يقول الشاعر:

هي الأنهار قد أجرت
جداول وردها العذب
مفاتحها طيور عين
تحلق في سما القلب

ولاشك في أن صورتها قصتها، فضلاً عن متحها من قوله عز وجل: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي الْقُوَّةِ ﴿٧٦﴾﴾ (القصص) بدون ياء المفاتيح، وعوض (الحور العين) أي الجميلات، يتعلق الأمر بالطيور العين ليحسن الاقتباس كما هو معلوم.. وهل للقلب سماء؟ إنها لغة الشعر المحببة ■